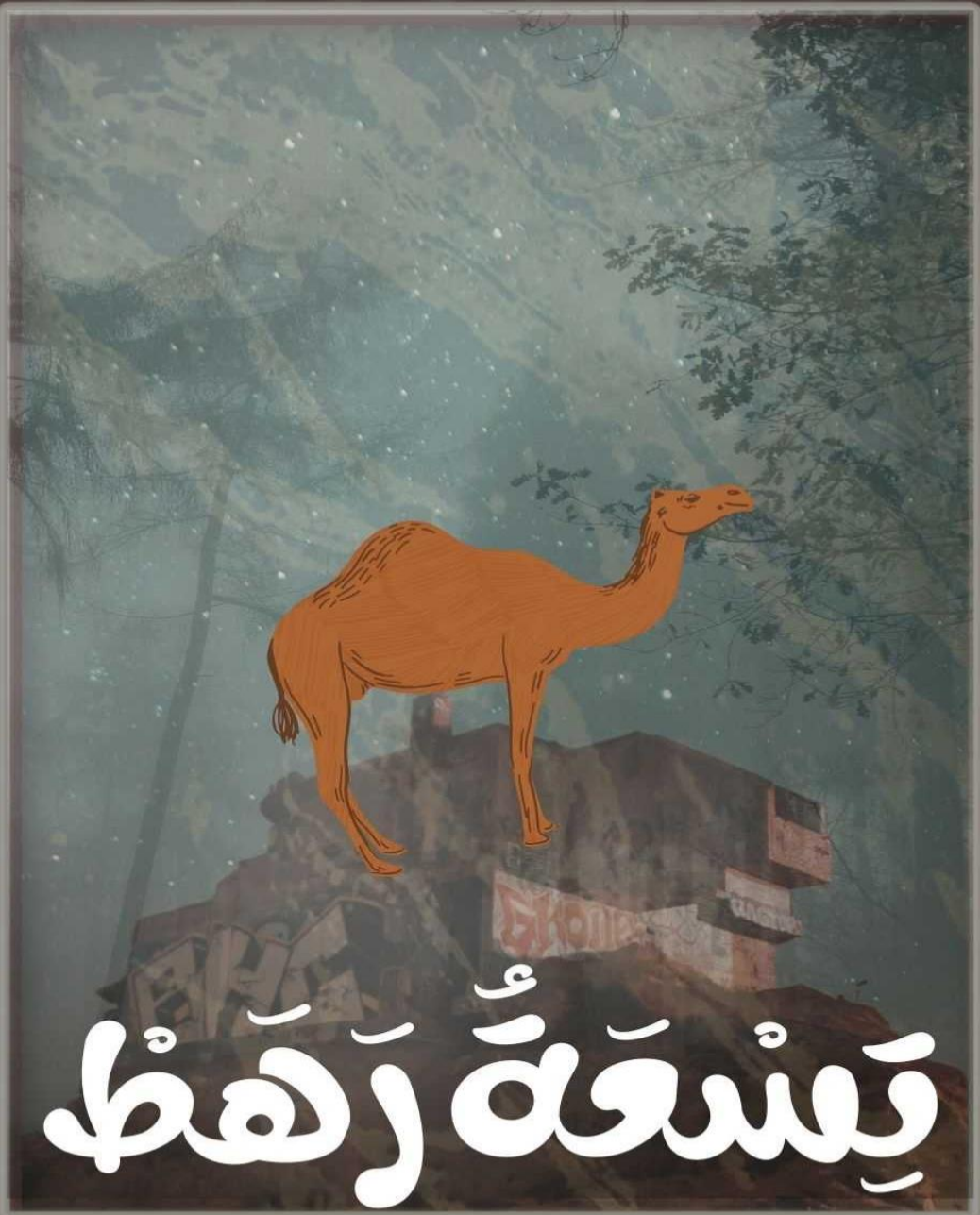

تِسْعَةُ رَهَطْ

قصة قصيرة

محمود عاطف عبد الفتاح

قصة قصيرة

تِسْعَةُ رَهْط

محمود عاطف عبدالفتاح

يقول الله تعالى:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53)}

[سورة النمل]

عصابة مُلحِدة..

لا تؤمن بالله ولا بِرُسُلِهِ

ولا بِشَرعِهِ ولا بِدينهِ..

وغايَة همِّها حرب الدِّين وأهلِه..

فكانت بداية الجريمة

في تلك الليلة المشؤومة.

الذنوب والمعاصي تَضُر ولابُد، فإن مما اتفق عليه العلماء وأرباب السلوك أن للمعاصي آثارًا وثارات، وأن لها عقوبات على قلب العاصي وبدنه، وعلى دينه وعقله، وعلى دنياه وآخرته.

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الذاريات: 55]

هذا هو المنهج الذي اختطه رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ لنفسه، فهو يذكِّر دائمًا أصحابه ليبقوا في حيطة وحذَر، قال سبحانه:

﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ [إبراهيم: 5]، الأيام التي فيها الفَضل والنِّعمة والسرَّاء، والأيام التي فيها المِحنة والنقم والابتلاء، الأيام التي يحتدم فيها صِراع الحق والباطل، والأحداث التي تطيش فيها العقول وتذهل فيها القلوب.

لمَّا نزل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بالناس على «تبوك» نزل بهم الحجر عند بيوت «ثمود»، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها «ثمود»، فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، فقال لأصحابه:

- لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها.

وأراهم مرتقى الفصيل في الجبل، وأراهم الفج الذي كانت الناقة ترد منه الماء، ونهاهُم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال:

- إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم.

وهنا ينقل النَّبي صلى الله عليه وسلم الصحابة إلى قصَّة قديمة في قَبيلة عربيَّة قديمة عنوانها: أشقى الأولين (قُدار بن سالف)، أحيمر ثمود، قال عنه ابن كثير: "رجل أحمر أزرق، قصير، يزعمون أنَّه ولد زانية، وأنَّه لم يكن من أبيه."

فما هم هؤلاء القوم؟

ولماذا خاف رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على أصحابه من هذا المكان المشؤم؟

ولماذا نهاهُم عن الشُرب من مائها؟!

بعث الله إلى «ثمود» أخاهم (صالحًا)، أخاهم نسبًا وعشيرة وقد كانوا ذوي حضارة وذوي بأس وذوي قوة، ولكنهم مع ذلك كانوا أهل شرك، وأهل ظلم، وأهل إفساد.

قال (ابن كثير) في البداية والنهاية بعدما أفاض في ذكر وتفسير الآيات الواردة في قصة «ثمود» مع نبيهم (صالح) عليه السلام:

وقد ذكر المفسرون أن «ثمود» اجتمعوا يومًا في ناديهم، فجاءهم رسول الله (صالح)، فدعاهم إلى الله، وذكرهم، وحذرهم، ووعظهم، وأمرهم، وهددهم وأنذرهم بعقوبة الله، أخذ أهل الكفر يستعجلون هذه العقوبة، وأخذوا يقولون له:

- إن كنت صادقًا فأرنا ما عندك!

فقال لهم:

- يَا قَوْمِ تطلبون العجلة بالسيئة والعقوبة والبطش والعقاب قبل الحسنة؟

ثم استطرد:

- أما كان الواجب عليكم عوضًا عن أن تطلبوا السيئة والعقوبة أن تستغفروا الله من ذنوبكم لعله يرحمكم، ولعله ينجيكم من عذابه وعقوبته.

وتلك عادة الكافرين قديمًا وحديثًا، وهكذا قال كفار العرب أيضًا، وهكذا قال الكفار الذين عاصروا رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فلا يزالون يقولون ذلك ويتحدون الحق ويطلبون أن يحل بهم العذاب والنقمة، وهو حال لا محالة.

فقالوا له:

- إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة –وأشاروا إلى صخرة هناك– ناقة من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافًا سموها، ونعتوها، وتعنتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا..

فقال لهم النبي (صالح) عليه السلام:

- أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به، وتصدقوني فيما أرسلت به؟

قالوا:

- نعم.

فأخذ عهودهم، ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه، فصلى لله عز وجل ما قدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا.

فأمر الله –عز وجل– تلك الصخرة أن تنفظر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك، رأوا أمرًا عظيمًا، ومنظرًا هائلًا، وقدرة باهرة، ودليلًا قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا..

فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم، وضلالهم، وعنادهم، وجحدوا بها، ولم يتبعوا الحق بسببها، فأصبحوا فريقين: فريق آمن بالله وترك الأوثان والأصنام، وفريق بقيّ على شركه وبقيّ على وثنيته، فصاروا يختصمون؛ هذا ينصر دينه الباطل، والمؤمنون ينصرون دينهم ويستدلون

على صحته بما ورد عن (صالح) من المعجزات، وبما عرفته نفوسهم وآمنت به عقولهم مما لا ينكره ذو عقل سليم.

وكان رئيس الذين آمنوا (جندع بن عمرو بن محلاه بن لبيد بن جواس)، وكان من رؤسائهم، وهَمَّ بقية الأشراف بالإسلام، قصدهم (ذؤاب بن عمر بن لبيد)، و(الخباب) صاحبا أوثانهم، و(رباب بن صمعر بن جلمس)، ودعا (جندع) ابن عمه (شهاب بن خليفة)، وكان من أشرافهم، فهمَّ بالإسلام، فنهاه أولئك، فمالَ إليهم، فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له (مهرش بن غنمة بن الذميل) رحمه الله:

وكانت عصبة من آل عمرو..

إلى دين النبي دعوا شهابا

عزيز ثمود كلهم جميعا..

فهمَّ بأن يجيب ولو أجابا

لأصبح صالح فينا عزيزًا..

وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا

ولكن الغواة من آل حجر..

تولوا بعد رشدهم ذآبا.

ولهذا قال لهم نبي الله (صالح) عليه السلام:

- هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً.

أضافها الله سبحانه وتعالى إضافة تشريف، وتعظيم، كقوله: بيت الله، وعبد الله، دليلًا على صدق ما جئتكم به، وقال:

- فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ.

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يومًا بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم؛ ولهذا قال:

- لها شِربْ، ولكم شِربٌ يوم معلوم.

كانت هذه الناقة فتنة واختبارً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون، فلما طال عليهم الحال هذا، اجتمع مَلَؤُهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها، ويتوفر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم..

فتآمَر المتآمِرون، وميزان الصَّلاح والفساد عند البشَر غير منضبِط، والبشرية مختلفة فيه، كل بحسب هواه؛ فـ(موسى) عليه السلام في نظَر (فرعون) فاسِد، و(موسى) عليه السلام في نظر (فرعون) كاذب، وهكذا دائمًا أهل الشَّقاء والسوء يَنسبون لأنفسهم الصَّلاحَ، ويعادون أولياءَ الله سبحانه، ويصِفونهم بأبشع الأوصاف وأقبح الأخلاق، بل يتشاءمون منهم حيثما وقعَت بهم نكبة أو نزلَت بهم نازلة.

وكان في تلك الأرض أرض «ثمود» في الحجر بين حدود الحجاز والشام تسعة رهط، تسعة رجال يتزعمون تسع

جماعات بأنواع الفساد، وأنواع الفتنة، وأنواع الكفر، يؤلبون على رسول الله (صالح) عليه السلام، ويؤلبون على من آمنوا به من أقوامهم وعشائرهم، وهؤلاء التسعة هم من كبرائهم وزعمائهم، وذكروا لهم أسماء، وكان أسماء هؤلاء التسعة: {هرما، ودعمي، ودعيم، وهريم، وصواب، وداب، ومسطع، ورياب، وقدار بن سالف}.

والقول بذلك لا يسانده آية من كتاب الله ولم تؤيده سنة عن رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ، وأسماء هؤلاء الرهط التسعة لا يزيدون ولا ينقصون، وإنما ضربوا مثلاً في أعمالهم لا في أسمائهم، ولو كان في أسمائهم مغزى وفائدة لذكرت أسماؤهم في القرآن أو لذكرهم رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم

(قدار بن سالف)

هو قدار، وقيل: (العيزار بن سالف بن جندع الثموديّ)، المعروف بـ«أُحيمر ثمود»، وأُمه (قديرة).

من رؤساء قوم ثمود المعاصرين لنبيّ الله (صالح) ــعليه السلامــ ومن أشدّ المعارضين والمناوئين له.

كان ولد زنى، وأبوه يدعى (صفوان)، زنى (سالف) بأُمّه فولد على فراشه، ولم يكن لأبيه.

كان أحمر الوجه والشعر، أزرق العينين، قصيرًا، كافرًا، مشركًا، يعبد الأصنام من دون الله.

ذلك الشَّقي كان رأس الهرم في مَنظومة الفساد التي كانت تديرها «ثمود»، فتآمَر على نبيِّ الله (صالح) كما تآمَر

السابقون على الأنبياء والمصلحين؛ فتآمروا على سيدنا (إبراهيم) وأرادوا قتلَه، وتآمروا على سيدنا (موسى) وسعوا إلى قتله، وتآمروا على سيدنا (عيسى) فخطَّطوا لقتله، وتآمروا على رسول الرحمة (محمد) –صلى الله عليه وسلم– وتحالفوا على قتله، وهكذا...

اجتمع المفسدون، وقرَّروا الانقلاب على العَبد الصالح نبي الله (صالح)، إنَّها عصابة ملحِدة، لا تؤمن بالله ولا برسله ولا بشَرعه ولا بدينه، وغاية همِّها حرب الدِّين وأهله، فكانت بداية الجريمة في تلك الليلة المشؤومة.

ولمّا كانت تلك الناقة تزاحمهم في مائهم ومواشيهم اتّفقوا على قتلها، كانت بينهم امرأة ذات جمال وثراء تدعى (صدوف ابنة المحيا بن زهير بن المختار)، وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم، ففارقته، وكانت تعادي نبيّ الله (صالحًا)، فاتّفقت مع ابن عم لها يقال له (مصرع بن مهرج بن المحيا)، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، وكانت هناك امرأة ثانية تُدعى (عنيزة بنت غنيم بن مجلز)، وتكنى (أم عثمان)، وكانت عجوزًا كافرة، لها بنات من زوجها (ذؤاب بن عمرو)، أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على (قدار بن سالف) إن هو عقر الناقة، فله أي بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها..

وسعوا في بقية القبيلة، وحسَّنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك، وطاوعوهم في ذلك، فاستجاب لهم سبعة آخرون، فصاروا تسعة، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها كمَّن لها (مصرع) فرماها بسهم، فانتظم عظم ساقها،

وجاء النساء يزمرن القبيلة في قتلها، وحسرن عن وجوههن ترغيبًا لهم، فابتدرهم (قدار بن سالف)، فشد عليها بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها، ثم طعن في لبتها، فنحرها، وانطلق سقيها، وهو فصيلها، فصعد جبلًا منيعًا، ودعا ثلاثًا، وروى (عبد الرزاق عن معمر) عمن سمع (الحسن) أنه قال الفصيل:

- يا رب، أين أمي؟

ثم دخل في صخرة، فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه، فعقروه أيضًا، ووزّعوا لحم الناقة بين أهل بلدتهم، ثم قال (قدار بن سالف):

- دعونا نُلحق (صالحًا) بناقته.

لم يكتفِ التسعة بقتل الناقة، بل اجتمعوا بعدما تَوَعَدَهُم نبي الله (صالح) بالعذاب على أن يقتلوه، فاتفقوا على قتله ليلًا إذا ما نام هو وأهله، واتفقوا أن يكون قتله سرًّا بحيث لا يعلم أحد بمن قتله، وإذا ما سأل أولياء دمه من قتله، يجيبوا بأنهم لا يعلمون، إذ إنّهم قالوا:

- تعالوا فلنقتل (صالحًا) فإن كان صادقًا عجّلنا قتله وإن كان كاذبًا ألحقناه بالناقة.

ثمّ أتوْا في الليل لقتلِه –عليه السّلام– مؤامرة الانقِلاب بالليل؛ لأنَّ النهار كاشِف فاضِح، فدبَّروها وأحكموها، ونسوا أنَّ الله جلَّ وعلا مطَّلع عليهم، فأرسل الله عليهم حجارةً من السماء

رضخت رؤوسهم، فأصبحوا صرعى، وهلك (قُدار) وزمرة الانقلاب معه.

وعندما أتى أصحابهم ورأوْهم قالوا لـ(صالح):

- أنت الذي قتلتهم وأرادوا قتله وتعذيبه.

لكن عشيرته دافعت عنه فمنعوهم من ذلك، وقالوا:

- إنه قد أنذركم العذاب فإن كان صادقًا فلا تزيدوا ربّكم غضبًا، وإن كان كاذبًا فنحن نسلّمه إليكم، فعادوا عنه.

فلمَّا أصبحوا، وعلِم نبيُّ الله (صالح) بنبأ القوم قال لهم:

- تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ.

عقروها يومَ الأربعاء، فجاء يوم الخميس فاصفرَّت وجوههم، وكان يوم الجمعة فاحمرَّت وجوهُهم، فتبعه السبت فاسودَّت وجوههم، فعلم القوم أنَّ العذاب قادِم فأصبحوا يومَ الأحد محنطين يَنتظرون العذابَ، وعلى أثر تلك الجريمة النكراء غضب الله على «ثمود»، وبعث عليهم جبريل –عليه السلام– فصاح بهم صيحة من السماء قضت عليهم في طرفة عين، ورجفةً من الأرض، فماتوا بأجمعهم، ثمّ أرسل سبحانه عليهم نارًا من السماء فأحرقت جثثهم، فهلكوا وأصبحوا وكأنَّهم أعجاز نَخل خاوية.

وهكذا يبدو أنَّ (قُدارًا) له إخوة من النَّسَب في كلِّ زمان، ويبدو أنَّ القصة متكررة حيثما وُجد الصالحون، ولا تزال ذريَّة (قُدار) تعيث فسادًا، تتآمر على شَرع الله ودينه، وما يؤكِّد ذلك قوله –صلى الله عليه وسلم– لسيدنا (عليٍّ بن أبي طالب) في الحديث:

"يا علي، أتدري مَن أشقى الأولين؟، قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: عاقِر النَّاقة، ثمَّ قال: أتدري مَن أشقى الآخرين؟، قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: قاتِلُك."

وهو ربط واضِح بين (قُدار) قاتل الناقة و(عبد الرحمن بن ملجم) الذي اغتال سيدنا (علي بن أبي طالب) في المسجد الكبير بالكوفة في «العراق»، وأنَّهما في الشَّقاء سواء، ومَن يقرأ التاريخ سيَفهم أنَّ هناك كثرًا اختاروا أن يسجِّلوا أنفسهم في سفر الأشقياء يوم أن حاربوا الدِّين وانقلبوا على الصالحين.

وهذا النوع من القصص التاريخية يذكره أهل العلم، ويتناقلونه للاتعاظ، والاعتبار به، فقد جاء في تفسير (القاسمي) عند الكلام على هذه القصة: "نؤثر هنا ما رواه علماء التاريخ، والنسب في بسط قصة ثمود، لمكان العظة، والاعتبار مفصلًا، وإلا فجلي أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك، وما سكت عن بيانه من تلك القصص، فلا حاجة إلى السعي وراءه؛ لفقد القطع به، اللهم إلا لزيادة الاتعاظ، وتقوية العبرة."

إنها رسالة لك أيها المسلم العاقل؛ هناك سبيلان لا ثالث لهما: إمَّا أن تختار سبيلَ الصالحين، وإمَّا أن تلتحق بركب قُدار وزمرته.

تمت بِحمد الله ٢٠٢٤/٣/١٢

عصابة مُلحِدة..
لا تؤمن باللَّه ولا بِرُسُلِهِ
ولا بِشَرعِهِ ولا بِدينِهِ..
وغايَة همِّها حرب الدِّين
وأهلهِ..
فكانت بداية الجريمة في
تلك الليلة المشؤومة.

أعمال أخرى للكاتب